الهارب من قريته ..

كانت المرة الأولى التى يتغير فيها موعد لقاء فريد هنيدى ورأفت إبراهيم فى محطة الرمل إلى ظهر يوم الإثنين بدلًا من مساء يوم الخميس، ذلك أن فريدًا قال لرأفت: «اترك كل ما فى يدك مهما كانت أهميته يا ابن الأسطى إبراهيم عبد الواحد وقابلنى فى هذا المكان وفى هذا الزمان فسوف ترى عجبًا..»

وكان رأفت إبراهيم هو الأسبق فى الحضور إلى المحطة، وظل يرقب ويراقب الهابطين من ترام الرمل ولسان حاله يقول:

ـ «ترى ما هو العجب يا ابن هنيدى هذا الذى أغريتنى به لأترك محاضراتى وأنتظرك هنا فى منتصف النهار؟»

* * *

وبرشاقة ملحوظة قفز فريد من الترام الذى ـ وصل إلى محطته الأخيرة ـ واتجه باسمًا نحو رأفت ثم أمسك بيده وراح يسرع الخطا به وهو يتحدث بسرعة فائقة معتذرًا عن تأخره ذاكرًا بعض أسباب هذا التأخير، وخوفه أن يمل صديقه طول الانتظار فى تريانون:

وهتف رأفت:

ـ «تريانون؟.. نحن الآن بجانب تريانون.. من هو صديقك هذا؟..»

وبدلًا من أن يغيثه بإجابة شافية أغاثه بالوقوف المفاجئ أمام طاهر زين الدين الذى يغادر مقعده ـ الذى اختاره فى مواجهة باب الدخول ـ ويقف أمامهما فاردًا ذراعيه كنسر رشيق ملىء بالمهابة والبشاشة:

ـ «حبايب قلبى.. حبايب قلبى.. حبايب قلبى»

ولم يصدق رأفت إبراهيم نفسه، فسارع بالارتماء فى أحضان طاهر وشاهد رواد المحل لقاء حميميًا مدهشًا بين ثلاثة يبدو أنه قد أضناهم الفراق وأهاج أشجانهم اللقا..

وبعد حين فهم رأفت إبراهيم أن طاهرًا هو الذى حدد هذا الموعد فى هذا المكان عبر خطابه لفريد على عنوانه الذى حصل عليه من أمير النحال..

ولم يكن للسنوات الأربعة التى غاب عنهما فيها طاهر نصيب من الحكى والشكوى قدر هذه الشهور القليلة الماضية التى قابل فيها طاهر ولدى عباس النحال: السيد، وأمير، فالسيد فتح لنفسه نفقًا فى جبل آل فوزية وصار كثير المرور إليهم حتى أنه إذا غاب عنهم أسبوعًا كاملًا أحسوا بالحاجة إليه وإلى سهراته العامرة بالحشيش.. هكذا امتلك شبابهم من أبناء العمومة والأخوال من آل فوزية. فصار يشعل لياليهم فى عين شمس بالبهجة هو ورجله الأثير عنتر مكاوى.

ولما طلب منه رأفت إبراهيم أن يصف له شكل عنتر مكاوى هذا..

اكتشفوا أنه هو نفس الشخص الذى يسلم الطرود إلى خميسة عفيفى.

وهنا سأله فريد:

ـ «السيد وعرفنا أنه يروج الحشيش عند آل فوزية فى عين شمس وبواسطة خميسة فى البلد.. فما الذى يروجه أمير..؟»

فقال طاهر متبسمًا: «يروج نفسه..»

ـ «عند من؟..»

ـ «عند فوزية نفسها»

فبادره فريد بنظرة غيظ: **«وأين أنت أيها المعجبانى؟..»**

ـ «أنا أتلقى أفعاله السيئة بغضب.. ثم تتحول هذه الأفعال إلى مادة للشجار بينى وبين فوزية.. وعرفنا الخلاف لأول مرة منذ ظهورهما. حتى أن فوزية تحلل عزوفى القديم عن الحديث حول أهلى ومعارفى إلى أننى رجل يعيش فى مشكلة داخل نفسه ولا يحب الناس.. ويهرب منهم.. ويعاديهم بلا سبب.. وهذا تقريبًا مجمل ما نجح أمير فى بثه بنفس فوزية»

فقال فريد: «طبعًا لأن أميرًا لسانه حلو.. وكلامه ناعم»

فأيده طاهر قائلًا: «بالضبط حتى أنه استطاع إقناعها أن تنضم إلى رحلة سيعقدها بعد امتحانات آخر هذا العام فى شهر يونيو القادم إلى الإسكندرية.. ووافقت على الانضمام معها رغم أنفى حتى لا ينفرد بها هذا الكلب.. »

بدا الانزعاج على وجه فريد وتساءل بغيظ: «إلى هذه الدرجة صار مؤثرًا فى خطيبتك؟»

ثم سأله:

ـ «هل فوزية تحمل شهادة ؟»

ـ «أجل.. دبلوم تجارة.. وأعرف مغزى سؤالك: أمير يشاغلها بمجتمع طالبات الجامعة الذى تشتاق إلى معرفته لأنها حرمت منه ..»

ابتسم فريد فى مرارة: «جميل أن تكون أنت نفسك قد وصلت إلى هذا التحليل..»

وهنا قال رأفت:

ـ «لا مجال للتعامل مع الثعابين إلا بقتلها.. الثعابين التى عرفت الطريق إلى قفص العصافير»

وقال فريد:

ـ «أو الابتعاد عنها.. تزوج فوزية وتحكم فى منزلك يا طاهر.. تحصنك بالشرعية سيحمى بيتك من تطفل الأغراب.. معركتك تفرض نفسها.. فوزية ستضيع منك فى أقرب فرصة»

وبعد ما عادوا مرة أخرى إلى ذكرياتهم فى البلد اقترب فريد هنيدى إلى المنطقة الحرجة فى الحديث بادئًا بإلقاء هذه الأبيات من الشعر:

أيها الهارب من قريته

أرضنا أضأل من أن تخْفِيَكْ

قالت الأرض لمن ودّعها

عد إلى أمك كيما تَحْمِيَكْ

أين ترجو هربًا يا ولدى

عد إليها.. وتلفَّع ماضِيكْ

ثم سأله فجأة: «ما رأيك فى هذا الشعر يا طاهر؟..»

هز طاهر رأسه فى أسى، وقال له :

ـ «أعده علىّ مرة أخرى.. يا فريد..»

فأعاد فريد أبياته التى تحث الهارب من قريته أن يعود إليها ففيها الحماية وفى ماضيها الدفء، وتنهد طاهر طويلًا، وأسند ظهره إلى ظهر المقعد وهو يتأمل صديقيه ويردد مكررًا:

ـ «ومع هذا فلن أعود.. لن أعود..»

ولاذوا جميعًا بالصمت الذى قطعه طاهر بحديث حاول أن يقنعهما به على أنه على حق مؤكدًا لهما أنه حاول أن يقنع نفسه بالعودة ووجد أنها مغامرة بلهاء سيخاطر فيها بمكاسبه المعنوية، فهو لم يهرب من الفقر لأنه لم يكن فقيرًا، لكنه فر من القهر.

ـ «فكيف أعود، وأتلفح هذا الماضى.. برداء من النار؟.. هيا بنا أنتما مدعوان للغداء على حسابى فى مطعم مصطفى درويش.. استأذنكما فى الذهاب إلى دورة المياة..»

وتحرك أمامهما ببدلته الصيفية الرائعة وقميصه الحريرى الناعم ورباط عنقه السولكا، فراحا يتأملانه بحب وإعجاب، لكنه الحب الذى لا يخلو من الشفقة والإعجاب المفعم بالمرارة، ولذا فقد مال رأفت برأسه قرب فريد وقال له:

ـ «من الواضح أنه لم يعلم أن جده قد مات وأن أمه فى حال سيئ، وأن أباه كاد أن يفقد رشده فهل نبلغه بكل هذه المآسى؟..»

فقال فريد:

ـ «بما أنه لم يسألنا عنهم وبما أنه متمسك بعدم العودة فلترحمه من عذاب جديد سيضاف إلى عذاباته..»

* * *

ولم تكن فوزية ابنة المعلم حمدان عبد القادر القط تعرف الحب إلا حين تعرفت على طاهر زين الدين، كذلك طاهر لم يكن يعرف الحب إلا حين رآها. فهما أبناء المهنة الواحدة يمارسانها فى أبهى صالونات هذا الحى الراقى، وقيل لها إنه ماهر ومهذب وكريم وطيب..

وتأكدت من كرمه عندما أصر فى مقابلة لهما عند خزينة المطعم أن يدفع لها ثمن ما ابتاعته من الشطائر.. ولما تحركت بينهما لغة القلوب لم يرضخا لصمتهما طويلًا.. حدثته عن وسامته البادية وأناقته الملفتة ثم حدثها عن جمالها الأخاذ وشعرها المذهل. وارتاحا لكل ما استجابا له من تصرفات قاما بها بدعوة من الحب، فكانت تنصرف قبل موعدها بساعة لتلبى دعوته على العشاء فى الميريلاند، ثم تنطلق إلى بيتها فى عين شمس فهناك من يرقبون تمام لحظة وصولها المعتاد. وكانت تأتى بعذر كاذب عند ربة عملها لتلحق حفلة السينما النهارية تلبية لدعوته الشيقة، أو تطلب إجازة ليوم الغد وهو نفس اليوم الذى طلب طاهر إجازته له لينطلق بها إلى كل الأماكن التى زارها فأعجبته..

عامان انصهرت فيهما نفوسهما قبل أن يقرر أن يتجه إلى منزلها فى عين شمس ليطلب يدها.

قال لأبيها إنه مقطوع من شجرة، وكانت أمها تعرف، وقال لجدها إنه ناجح فى عمله، وكانت أمها تعرف، وقال لعمها إنه كان يرقب حسن التصرف الذى تتسم به فتاته وراقبها عن بعد وسأل عنها عن بعد، وكانت أمها تعرف أنه يكذب..

وعاد الأب الصعيدى إلى ابنته ليرى إن كانت تقبل رجلًا بلا أهل، فقالت له: لعله ما جاء إلينا إلا لنصبح نحن أهله، فاقبله يا أبى فهو المهذب الأمين..

وها هما العامان قد مرا مرور السحاب وهى تتمنى لو سمعت منه كلمة عن أمه أو أبيه أو أخته أو أخيه أو ذكرى مع صديق فى طفولته أو قريب فى ذاكرته.. دون جدوى.

وعرفت فوزية أنها أحبت رجلًا عجيبًا لا يملك ماضيًا وإنما سقط على الحاضر من عالم الغيب.. رجل كل ماضيه هو يوم الأمس الذى تعرفه.. أما يوم الغد، فهو كل ما يعرفه عن المستقبل ..

فوزية حمدان لم تعبأ بكل ذلك.. لكنها أولت اهتمامها لخدر الحب الناعم الذى بدّل حالها منذ التقت بطاهر الصنايعى الوسيم الذى سمعت عنه قبل أن تراه، ثم احتفظت به فى قلبها منذ أن رأته.